صادق سعد

«هذه الدراسة هى محاولة للبرهنة على أن ثمة أداة علمية تصلح لتحليل التاريخ المصرى. هذه الأداة هى المادية التاريخية».

صادق سعد

فى مقدمة كتابه «فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج.. تاريخ مصر الاجتماعى السياسى»

عندما أدرت حوارى مع بول جاكو وقال تنحيت عن المشاركة فى العمل الحزبى وتركت ثلاثة اخترتهم ليبدأوا فى تأسيس منظمة حزبية مصرية كان اسم صادق سعد أول هذه الأسماء الثلاثة. وهكذا أمسكت بخيط الحوار معه. وكالعادة سألته كيف ومتى؟ فقال: «كانت المصادفة مبكرا جدا وأنا مجرد طالب ثانوى فى مدرسة الليسيه الإسرائيلية بالإسكندرية (ونلاحظ أن كلمة إسرائيلى كانت تستخدم فى مصر كمرادف لكلمة يهودى وكانت خانة الديانة تستخدم كلمة إسرائيلى) وهى مدرسة صغيرة عدد طلابها محدود. وتكون المصادفة عندما تمرض مدرسة التاريخ وتحل محلها مدرسة أخرى مؤقتا. وكنا ندرس فى هذه السنة تاريخ الثورة الفرنسية. دخلت المدرسة الشابة الفصل ثم قالت فى تحد واضح أنتم تدرسون التاريخ بشكل خاطئ، ولكى تفهموا التاريخ فهما صحيحا يجب أن تدرسوه على ضوء الصراع الطبقى، وشرحت لنا وباختصار المادية التاريخية.

وانفتحت عيناى فى هذه اللحظة على طاقة ضوء ظلت تغمرنى طويلا، وجدت بابا جديدا ورحبا للمعرفة، ثم بدأت المدرسة الرائعة فى تزويدنا ببعض الكتب الماركسية، ثم دعتنا لحضور ندوة فى مقر اتحاد أنصار السلام، وكان هذا بداية خيط الاتصال بالاتحاد، هذه المدرسة وهى آنا طوبى» (هكذا ذكر اسمها فى حواره معى بتاريخ ١٩٧٥/٤/٦، لكنه عندما تحدث عنها فى كتابه «صفحات من اليسار المصرى» ص٣٩ أورد اسمها قبل الزواج وكان آنا كالينكو). ويواصل: «وبدأت أطلع على بعض المؤلفات الماركسية الصادرة

باللغة الفرنسية وأذكر خاصة «البيان الشيوعى»: وفى كتاب «صفحات من اليسار المصرى» يقول عن «البيان الشيوعى» «ألهبنى هذا الكتاب حماساً لترابطه البنائى والمنطقى المحكم ولأنه يقدم أداة علمية رائعة لتحليل التاريخ وشتى الاتجاهات السياسية» (ص٧٩).

«وفى عام ١٩٣٧ التحقت بكلية الهندسة وسافرت إلى القاهرة حيث الجامعة الوحيدة فى هذا الوقت، وبدأت بالطبع فى التردد على مقر اتحاد أنصار السلام وتعرفت إلى المهندس بول جاكو والشاعر القبرصى تيو بيريديس وزوجته إلكسندرا وريمون دويك ويوسف درويش وجورج حنين وغيرهم، وانضممت إلى حلقة دراسية كونها بول جاكو وكنا نجتمع كل أسبوع لقراءة كتاب فى الاقتصاد السياسى أو فى موضوع آخر ثم نجرى نقاشا حول موضوع الكتاب، ويرجع لهذه الحلقة الفضل فى تكوينى الفكرى، وإرساء فهم علمى للاقتصاد السياسى فى ذهنى، ومن المهم أن أقرر أننا فى هذه الحلقة الدراسية درسنا كتابا مهما معاديا للصهيونية وقد ألفه المفكر الشيوعى الألمانى «أتو هيللر» واسمه «نهاية اليهودية» والحقيقة أن هذا الكتاب كان حجر أساس مهم فى تربيتنا الفكرية المعادية للصهيونية معاداة حاسمة» (وهنا نتوقف لنذكر القارئ أن صادق سعد يهودى المولد وكان اسمه سارتيل سلامون ثم اعتنق الإسلام).

وأسأله ما هى علاقة «اتحاد أنصار السلام» بالمثقفين المصريين، فأجاب: «يمكن القول إنها كانت علاقة خفية ومحدودة، وقد نجحنا فى جذب بعض المثقفين المصريين وخاصة عبر الندوات والمؤتمرات التى كانت تتعلق بالنضال ضد الاستعمار مثل مشكلة الحبشة بعد احتلال الإيطاليين لها، ويجب أن نلاحظ أن مسألة الدفاع عن السلام لم تكن مفهومة فهما حقيقيا لدى الجمهور المصرى الذى كان ينادى بالحرب ضد الاستعمار، والحقيقة أن قاهرة ذلك الزمان كانت تغص فى كل يوم بعشرات الندوات والمؤتمرات وكان الشبان الماركسيون يتجولون بينها ليشرحوا فيها وجهات نظرهم». ويمضى صادق سعد: «وأذكر أننى بعد أن دخلت الجامعة دعا بعض أعضاء مصر الفتاة لإقامة مؤتمر لنصرة فلسطين، ودخل عدد من الطلاب إلى المدرج هاتفين ضد اليهود وأنا وقفت محتجا وتكلمت بلغة عربية ذات لكنة أجنبية متحدثا عن الفارق بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة سياسية معادية للحق الفلسطينى وذات صبغة استعمارية، ودعوت الجميع للهتاف معى: تسقط الصهيونية».. ثم «وفى عام ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية ولم يعد هناك مجال للحديث عن السلام

العالمى، واجتمعنا وكان عددنا حوالى عشرة أو خمسة عشر شخصا واتفقنا، وبناء على اقتراح من بول جاكو، على إعلان حل الاتحاد، وأسسنا جماعة أخرى أسميناها "جماعة البحوث" وكانت ناديا ثقافيا واتخذت مقرا لها فى شارع عدلى.

وتمضى هذه المجموعة المحدودة العدد والمعزولة عن الجمهور المصرى والتى يتسم أغلبها بأصول أجنبية أو متأجنبة ولم يكن فيها سوى ثلاثة مصريين: يوسف درويش وريمون دويك وصادق سعد، وإن كانوا منغمسين فى بحر الثقافة والتعليم الأجنبى.

لكن يوسف درويش فعلها.. كان محاميا شابا وكان يسكن فى شارع سكة جلال الملك فى بولاق وهناك تعرف بمجموعة من العمال وأسس منهم ومعهم "جماعة الشباب للثقافة الشعبية".. وهكذا انطلق أول سهم نحو الجماهير المصرية».

* * *

«لقد كان هدفنا الأول فهم مصر، ولأنه لا يمكن فهم مصر من الكتب فقد عملنا على إيجاد علاقات جماهيرية بالحركة الشعبية الوطنية والديمقراطية المصرية».

صادق سعد

(فى حواره معى)

ولم يكن الأمر سهلا، الثلاثة صادق سعد - ريمون دويك - يوسف درويش اختارهم الأستاذ والمعلم بول جاكو علمهم أوليات السباحة ثم تركهم كى يعبروا المحيط سباحة، لكنهم نجحوا.

وعلى مبدأ الحذر الشديد كان نهج الثالوث، قرروا التأنى وعدم التعجل فى إنشاء «تنظيم» وإنما حاولوا فهم مصر وأوضاعها ومشاكلها وإقامة نقاط ارتكاز للعمل الجماهيرى، يقول صادق سعد: «منعنا أنفسنا عن وعى من إنشاء تنظيم وأحسسنا أن هذا التعجل غير مفيد»، وكان هذا الفهم أحد أسباب الصراع بين التيارات الشيوعية، فالبعض تمهل والبعض تعجل، وعندما كتب شهدى عطية مقالا فى «الجماهير» باسم سرى هو «محمود حمدى» وكان المقال بعنوان «يريد الشعب حزبا من نوع جديد» وكان يقصد الحزب الشيوعى، رد عليه أحمد رشدى صالح أحد أعضاء هذه المجموعة معارضا، ومضت هذه المجموعة فى طريق آخر أصدرت مجلة «الفجر الجديد» وأسست «دار القرن العشرين»

للنشر، ولكن مقال رشدى صالح فتح باب صراع بين اتجاهين ومضى الشيوعيون الآخرون يقولون إن هذه المجموعة ضد تأسيس حزب، مكتفية بعلاقاتها مع مجموعة «الطليعة الوفدية» وإنها تطمح وفقط إلى موقع على يسار حزب الوفد.

وفى حوارى معه يقول صادق سعد عن هذا الموضوع «الحقيقة أننى الآن (١٩٧٥) وبعد مراجعة متأنية لما حدث أعتقد أن موقفنا كان خاطئا بشكل جزئى، لأنه كان من الممكن إنشاء تنظيم دون أن يؤدى ذلك إلى إعاقة أنشطتنا الأخرى، بل ربما كان سيساعد فى إنجازها»، ويمضى صادق سعد فى نقد ذاتى شجاع لم يفعله كثيرون: «إننى يمكن أن أنتقد موقفنا أو بالدقة أنتقد نفسى مؤكدا أن أهدافنا الاشتراكية لم تكن واضحة، كنا باسم الشيوعية أو باسم الماركسية وطنيين إلى أقصى درجة، وديمقراطيين إلى أقصى درجة، لكننا لم نوضح بما فيه الكفاية أهدافنا الاشتراكية أو بالدقة لم نبرز فى ساحة المجتمع كموقع طبقى متميز، ولذلك امتزجنا إلى حد ما بالحركة الواسعة للبرجوازية الصغيرة»، وعلى أى حال فإن هذه المجموعة ما لبثت أن تعرضت هى وكل القوى الوطنية واليسارية لضربة صاعقة على يدى حكومة الطاغية صدقى وأغلقت صحفها «الفجر الجديد – الضمير» ودار القرن العشرين ولجنة نشر الثقافة الحديثة واعتقل عدد من قادتها.. ولم يعد هناك مفر من تأسيس تنظيم لكنه تأسس وفق المبدأ الأساسى «ما لا ينفع يضر». ونواصل مع صادق سعد: «اتفقنا أولا على إعداد الوثائق الأساسية (لائحة – خط سياسى – خط تنظيمى – خط جماهيرى – خط نقابى) واتفقنا على الاتصال مع عدد من زملائنا الموثوق بهم تماما وعرضت عليهم هذه الأوراق فى شكل مجموعات وناقشوها واختارت كل مجموعة مندوبا عنها وكان هؤلاء المندوبون سبعة، واجتمعنا فى سبتمبر ١٩٤٦ فى مقهى خريستو فى شارع الهرم وتم إقرار الوثائق واعتبر المجتمعون أنفسهم مؤتمرا تأسيسيا وانتخبوا لجنة مركزية من ثلاثة أنا مسئول سياسى ويوسف درويش مسئول تنظيمى ومحمود العسكرى مسئول عمل جماهيرى، وقد تم ضم أحمد رشدى صالح إلى اللجنة المركزية فيما بعد، وكان التنظيم مطلق السرية، حتى إن أعضاءه لم يكونوا يعرفون اسم المنظمة التى ينتمون إليها، وأحيانا كانوا لا يعرفون أنهم أعضاء فى المنظمة أصلا، وكان شعارنا «ما لا ينفع يضر». بمعنى أنه طالما أن المعلومة لا تنفع فلا مبرر لقولها لأحد وهكذا حمينا تنظيمنا» وتمضى رحلة التنظيم ويغير اسمه أكثر من مرة ربما بسبب تغير

المهام وربما بسبب الأمان، فهناك الطليعة الشعبية للتحرر (ط.ش.ت) ثم الديمقراطية الشعبية (د.ش) ثم طليعة العمال (ط.ع) ثم حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى.

وتجرى مياه كثيرة فى النهر ليس هذا مكانها، لكن الأهم فيما يخصنا هو صادق سعد المفكر، تألق صادق سعد على صفحات «الفجر الجديد» والتى استغرقت مقالاته فيها ٢٠٨ صفحات من كتابه «صفحات من اليسار المصرى»، وفى عام ١٩٤٥ أصدر صادق أول كتبه «مأساة التموين» ثم «مشكلة الفلاح» و«فلسطين بين مخالب الاستعمار» ثم «أسئلة وأجوبة حول الموقف الراهن»، وينضم صادق إلى التجمع لكنه يبقى قلقا فى التجمع، لم يتسق معه وظل مختلفا فى كثير من المجالات حتى حول كامب ديفيد اختلف، وفى بيروت أصدر عديدا من الكتب.

وأذكر أننى كنت عند ناشر شهير هو د. بشير الداعوق «دار الطليعة» وقدم لى كتابا ينتقد برنامج حزب التجمع وكان النقد راقيا وموضوعيا ولاذعا والاسم على الغلاف «محمود عبد المولى» وسألته من هذا قال: صادق سعد، ثم تفرغ صادق سعد لكتاب موسوعى عنوانه «فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج.. تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى».. وهو كتاب رائع بل وأكثر من رائع.